المشترك الإنساني في الفكر المعاصر: مقاربة تأصيلية تحليلية

د. حنان خياطي*

*باحثة في الفكر الإسلامي، مختبر دراسات الفكر والمجتمع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة/المغرب.
khiyatih@gmail.com

ملخص :

يروم البحث المساهمة في تأصيل مفهوم (المشترك الإنساني)، من خلال الكشف عن المداخل المقاصدية لمشروعية أصل المشترك الإنساني، وهي مسألة تفتح الرؤية الإسلامية على الآفاق الإنسانية وتبني مشتركات مع المجتمعات المختلفة، يبرز فيها عطاء الإسلام وقدرته على منح الإنسانية ما تصبو إليه، لمد جسور التواصل بين مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، وفتح مداخل التعاون في القضايا المشتركة وتدبير هوامش الاختلاف بشكل عقلاني وموضوعي بعيدا عن نزعات التعصب والتطرف والهيمنة .

كلمات مفتاحية : المشترك الإنساني - المقاصد القرآنية-تدبير الاختلاف.

The Human Common in Contemporary Thought: An Analytical Fundamentalist Approach

Dr. Hanane khiyati
Researcher in Islamic Thought / Thought and Society Studies Laboratory - Faculty of Arts and Human Sciences - El Jadidah/ Morocco

ABSTRACT:

The research aims to contribute to the consolidation of the concept of (the human common) by revealing intentional entrances to the legitimacy of the origin of the human common, communicating among different hu-

man civilizations and cultures, opening the doorways to cooperation in common issues and managing the margins of difference in a rational and objective manner, away from the tendencies of fanaticism, extremism, and domination.

KEYWORDS: the human common - Quranic purposes - management of difference.

المقدمة:

علاقة المسلمين بالغرب بقدر ما هي مثقلة بآثار الصدام التاريخي بينهما، فهي تجر معها أزمة فكرية مركبة تنبئ عن عمق التفاعل سلبا وإيجابا بين الحضارتين، وعن كون المشكلات بينهما ناجمة حينا عن وجود التلاقي والتشابه في الأصل وحينا آخر عن الاختلاف والتباين الواقع في التاريخ، لذا يفرض هذا المعطى على كل المسلمين والغرب تجديد النظر في طبيعة هذه العلاقة القائمة وبحث إمكانية تجاوز العوائق التي كرست الأزمة، وأبّدت المشاكل وأشعلت فتيل الصراع وشجعت فلسفة الصدام، انطلاقا من استلهام العناصر الجامعة أو المشتركات الكبرى التي تنجذب إليها الأطراف وتنتظم وفقها القيم الإنسانية الكلية، هذا الواقع يثير الفكر لتحليله والإسهام في تغييره بالإعداد لمستقبل تلتقي فيه مصالح الناس، وتتقارب ثقافاتهم وتتعايش حضاراتهم والبحث عن مشترك تلتقي فيه الإنسانية وتتخلص من تبعات عصور الفتن والكراهية والظلم، وتتجاوز الخطاب التحريضي السلبي الصدامي الذي يجتال الناس ويؤيد الصراع الديني والعرقي والقومي والاقتصادي والعسكري والسياسي.

ومن هنا ينبع الإشكال: كيف تنصلح العلاقة بين المسلمين المؤمنين بالقرآن رسالة عالمية خاتمة ومنهاجا معرفيا وسلوكيا للفرد والجماعة والأمة والإنسانية وهم يجرون معهم تراثا تقيلا ومختلطا، وبين الغرب المشبع إلى جانب تفوقه التقني والتكنولوجي والحضاري بقيم الوضعية والعقلانية والبراغماتية؟ كيف ننتقل من فلسفة الصراع إلى فلسفة المشترك؟ وماهي الأسس والأصول الكبرى لهذا المشترك الإنساني؟

فرضيات البحث:

عمق الإشكال وتشعبه فرض على البحث أن يتجه صوب إعداد جواب شامل يوازي حجمه ويجمع شتان أسئلته وفي ثنايا إعدادة البحث لم أجد فرضية لهذا الجواب سوى فكرة المشترك الإنساني، فكان التساؤل عن مدى إمكانية بناء هذه النظرية في مبادئها وتطبيقاتها.

أهداف البحث:

في هذا البحث نسعى إلى تقديم مقاربة تأصيلية تحليلية لمفهوم المشترك الإنساني الذي يهيمن على الفكر الإنساني المعاصر، انطلاقا من نص الوحي ومقصده، لنثبت أن ارتباط هذا المفهوم في الثقافة الغربية بخصوصيات تاريخها الفكري ومنعرجاته، وبمفهوم حقوق الإنسان الوثيقة المعروفة في حضن هذه الثقافة لا يلغي حقيقة مفهوم المشترك الإنساني واصالته في النص القرآني.

هيكلية البحث:

لرصد الأسس المنهجية التي أسس عليها القرآن الكريم مفهوم المشترك الإنساني وتحليل هذه الأسس وتعليلها، واستثمارها في بناء أسس للتواصل بين مختلف الحضارات والثقافات الإنسانية، وفتح مدخل واسع للتعاون في القضايا المشتركة وتدبير هوامش الاختلاف، **نقترح البناء الهيكلي في الخطة الآتية:**

المبحث الأول: المشترك الإنساني، الأسس والمنطلقات الفكرية (قراءة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم).

المبحث الثاني: دور الأولويات المقاصدية في بناء المشترك الإنساني.

المبحث الثالث: التنظيم العملي الشرعي في تدبير المختلف وبناء المشترك مع المخالف.

المبحث الرابع: تفعيل المشترك الإنساني من الأساس النظري إلى التطبيقي (دور المؤسسات الدينية والمؤسسات الاكاديمية ووسائل الإعلام).

المبحث الأول

المشترك الإنساني، الأسس والمنطلقات الفكرية :(قراءة تأصيلية في ضوء القرآن الكريم)

يؤسس القرآن الكريم بأحكامه المجملة والتفصيلية لمبدأ التنوع والتعدد ويمهد السبل للاعتراف بالغير، بل جعل هذا التعدد آية من آيات الله الدّالة على خلقه، وسمة على عظيم صنعه، فقال جلّ

وعلا: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين) [الروم :22]، وتنوع الألسن والألوان يجعل الناظر للنص القرآني يستحضر وحدة الأصل التي تجعل الناس سواسية وإن اختلفت معتقداتهم، ومن هنا جاء إقرار القرآن بالمساواة المطلقة بين الناس والاعتراف الصريح بالتنوع الحضاري المعبر عنه بالاختلاف يقول تعالى: (ولايزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم) [هود:118-119].

والقصد من التعدد البشري والتنوع الثقافي في أدنى مراحله هو التلاقي والتعارف وتبادل الأفكار والخبرات التي تطورها أنماط الحياة المختلفة.

والقرآن الكريم قد أسس رؤية متميزة للحياة والعلاقات بين الأحياء، فجعل التنوع والتعدد والاختلاف سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وهذا التنوع يتجاوز كونه حقا من حقوق الإنسان إلى سنة من سنن الله: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) [النساء:1] ،يقول الحسن البصري: «وللاختلاف خلقهم»[1] فالواحديّة والأحديّة فقط للحق جلّ وعلا ...والتنوع هو السنة والقانون في عوالم المخلوقات كلها، حتى صار له مقاصد منها:

التنوع هو السنة والقانون في عوالم المخلوقات كلها

(1) الحافظ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ،دار ابن حزم ،بيروت،ط 1، 2000م ،ص 362/4.

-تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين :(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) [المائدة:48].

-فتح أبواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع الذي يستحيل تحقيقه دون تمايز واختلاف:(ولكلّ وجهةٌ هُوَ مُوَلّيها) [البقرة:148].

لذا فإن علاقة الفرقاء المتمايزين والمختلفين، يجب أن تظلّ في إطار الجوامع الموحدة، وعند مستوى التوازن والعدل والوسطية :(وكذلك جعلناكم أمة وسطا) [البقرة:143]، والوسط بنص الحديث

-هو:» العدل»[2] الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين.

والعدل في الإسلام مبدأ مطلق وشامل، لا يستثنى منه أحد سواء كان مسلما أو غير مسلم، والآيات القرآنية تؤكد هذا الإطلاق وعدم الاختصاص، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} النساء الآية:58. والناس كلمة عامة مطلقة تشمل المسلم وغير المسلم.[3] وانطلاقا من هذا المفهوم للعدل لم يجعله الإسلام منوطا بإسلام المسلم حتى يكون مقصورا عليه لا يتعداه، بل مناطه إنسانية الإنسان المتفرع عن مبدأ الكرامة الإنسانية الثابت بقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} الإسراء الآية :70. والعدل في نظر الإسلام هو الغاية القصوى التي أنزلت من أجلها الشرائع السماوية، وأرسل الرسل جميعا لتحقيقها بين بني البشر، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . . . ﴾ و[الحديد:25]

وإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق التدافع الذي هو حراك يعدل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والتعارف والتفاعل، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف:(ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) [فصلت:34]، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)[الحج:40]،(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)[البقرة:251]. فالاختلاف بين البشر في أفكارهم وآرائهم ومواقفهم وعاداتهم أمر لا بد منه تقتضيه ظروف نشأة البشر وتعدد الثقافات والحضارات الإنسانية واختلاف الناس في الدين أمر من مقاصد الخلق (ولوشاء الله

(2) البخاري، الجامع الصحيح، باب: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، رقم الحديث :(4271):4/-1632حنبل، أحمد مسند الإمام أحمد، برقم: (11301،11289):32/3، وكلاهما من حديث أبي سعيد الخضري رضي الله عنه.

(3) مخدوري، مجيد، مفهوم العدل في الإسلام، ترجمة: دار الحصاد، ط 1، دمشق، دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1998م ،ص 177.

لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ّ ولا نصير) [الشورى:8]،(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) [يونس:19].

وقد حثّ القرآن على الانفتاح والإخاء الإنساني وعدّه طريقا للتكامل بين البشر، قال جلّ و علا: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [الحجرات:13].سنّة لا سبيل إلى إلغائها وتجاوزها بل ينبغي فهمعا واستيعابها وأن أصل دعوة الإسلام هو الالتقاء بين الأمم والشعوب لمزيد من التفاعل والتواصل الحضاري قال تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن ّ الله يحب المقسطين) [الممتحنة:8].

حثّ القرآن على الانفتاح والإخاء الإنساني وعدّه طريقا للتكامل بين البشر

وفي ضوء هذه المبادئ السامية التي سنّها القرآن الكريم للتعامل مع غير المسلمين انتشرت رسالة الإسلام في جميع انحاء الأرض وازدهرت الحضارة الإسلامية في جوانبها المادية، نتيجة الالتقاء بثقافات الآخرين، (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) [آل عمران :64].

«وليس ثمة أبلغ وأوفى بالقصد من الآية الكريمة في الدلالة على عمق مبدأ التعايش في مفهوم الإسلام ذلك أن المسافة المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب مساحة واسعة وإذا كان الإسلام قد جعل في قلوب المسلمين متسعا للتعايش مع بني الإنسان كافة، ففيه من باب أولى متسع للتعايش بين المؤمنين وإن كان هذا التعايش لا يعني أننا متفقون في كل شيء» [4].

ومن هنا تبدوا لنا ضرورة التفكير الجدي في قضية التفاعل الإنساني والحضاري وأبعادها الأساسية في العصر الراهن، والأمة

(4) حسان حتحوت، رسالة إلى العقل العربي المسلم، دار المعارف، مصر، ص 153

الإسلامية اليوم بحاجة ماسة إلى الدخول في مشروع تجديد حضاري شامل يعيد لها حيويتها وفاعليتها الحضارية وأصالتها التاريخية وهو ما يتطلب انبراء علماء الامة ورجالها المخلصين للخوض في موضوع التفاعل على أساس المشترك الإنساني بوصفه عملا علميا حضاريا منهجيا شاملا، يتطلب أعلى مستويات الوعي والفاعلية ويخضع لمنهج حضاري واضح ومتوازن ومتناسب مع الواقع المطلوب تغييره.

المبحث الثاني

دور الأولويات المقاصدية في بناء المشترك الإنساني

يعرف علال الفاسي المقصد العام للشريعة: «هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها وتدبير لمنافع الجميع»[5]

وهذا التعريف يبرز وضوحا ماهية المقاصد وعلاقتها بالتعايش السلمي، لأن مفهوم التعايش المذكور يعتمد على أهم أوصاف الشريعة التي تدخل في مسمى مقاصد الشريعة.

يقول الامام ابن عاشور «إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا من كليات دلائلها ومن جزئياتها المستقلة أن المقصد العام من التشريع فيها، وهو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه»[6]،واستدل الامام ابن عاشور لرأيه بعدة من الآيات القرآنية يبين بوضوح أن الغاية من إرسال الأنبياء والرسل، وإنزال الشرائع هو إرشاد الخلق لما به صلاحهم، وأدائهم لواجب التكليف المفروض عليهم.

والملاحظ أن الامام ابن عاشور جعل عقائد الإسلام وتعاليمه وتشريعاته تكون من أربعة مفاهيم أساسية، كما يذكر الطاهر الميساوي، وهي: الفطرة، والسماحة، والحرية، والحق (العدل) [7]

وهذه الاوصاف الأربعة مظاهر أساسية للإنسانية، والمروءة،

(5) الفاسي، عـلال ،1991م، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط 5، دار الغرب الإسلامي، ص 15.

(6) ابن عاشور، الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار النفائس، الاردن، ط2، 2001م، ص 25.

(7) الميساوي الطاهر، مقاصد الشريعة للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، كوالالمبور، دار الفجر، 1992 م، ص 14.

فأينما اختل واحد منها في إنسان يشكل عضوا لمجتمع فيرى أثر هذا النقص في المجتمع، وينشأ هناك أمراض اجتماعية تزيل الامن والسلامة، فمن ثم يرى الباحث أن فكرة الإمام ابن عاشور في مقاصد الشريعة والتنظير الاجتماعي، لها علاقة قوية بالتعايش السلمي.

ولعل ابن القيم وُفق في صياغة أبرز المحددات المقاصدية للشريعة والتشريع في الإسلام، من خلال عبارته السائرة «»الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدْل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، ومصلحة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل»[8]

ويلاحظ أن ابن القيم، وضع محددات إنسانية لمضمون وجوهر الشريعة وهي:

العدل، الرحمة، المصلحة، الحكمة.

وأبان أن طبيعة التشريع الإسلامي تتقصد الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية، ويؤكد هذا المعنى الطاهر علال الفاسي حينما يقول: «الذي لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية مبنية على مراعاة المصلحة العامة في كل ما يرجع للمعاملات الإنسانية لأن غايتها هي تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية لسكان البسيطة»[9].

طبيعة التشريع الإسلامي تتقصد الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية

وفي هذا المقام يقول طه عبد الرحمن في توصيفه لموضوع علم المقاصد بأنه «علم الصلاح الإنساني «باعتبار ان مقاصد الشريعة الإسلامية تبحث في وجوه صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة، و»الصلاح قيمة خلقية «لذلك فعلم المقاصد هو علم الأخلاق الإسلامي، أو علم المقاصد هو علم أخلاقي موضوعه الصلاح الإنساني».

وبذلك يكون كل من ابن القيم وابن عاشور والفاسي، قد جعلوا من فكرة المصالح والمفاسد التي هي عين مقاصد الشريعة على

(8) ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد، إعلام الموقعين، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط 1مج 1 ص 333.

(9) الفاسي، عـلال، مقاصد الشريعة ومكارمها، مرجع سابق، ص 193.

مستوى الأفراد وسيلة خادمة لتحقيق مقاصد سامية تبرز في عمارة وحفظ نظام الأمة فيها بصلاح المستخلفين عليها، فيرغد العيش وتخصب الأرض، وينتشر الأمن والأمان، وتوطد العلاقة بين الأقوام من المسلمين وغير المسلمين، وتـزداد المحبة والمودة لديهم بالتعايش السلمي.

لا يتحقق التعايش السلمي إلا في جو من العدل والحرية في المعتقد والعمل والحركة مع المساواة

ولا يتحقق التعايش السلمي إلا في جو من العدل والحرية في المعتقد والعمل والحركة مع المساواة، وأن المقصد من وراء ذلك هو التعارف لتحقيق الخلافة الحقة في الأرض. يقول البهي الخولي: «إن الخلافة وصف عام، أو تكليف شمل البشر كافة، فالناس يرثون خصائص آدم- عليه السلام -ما كان منها روحيا، وما كان منها غير روحي، لا فرق بين شعب وشعب ولا بين جنس وجنس»[10]

(10) الخولي، البهي، آدم عليه السلام فلسفة تقويم الإنسان وخلافته، مصر، دار النشر مكتبة وهبة، ط1 ،1974م، ص 130.

المبحث الثالث

التنظيم العملي الشرعي في تدبير المختلف وبناء المشترك مع المخالف

عززت الشريعة الإسلامية لقضية المشترك الإنساني بالتأسيس الفقهي العملي، من خلال جملة أحكام فقهية أرست قواعد التعامل اليومي مع المخالف الديني والثقافي على النحو الذي يقوي أواصر التقارب مع المخالف، ويضمن معه بناء المشترك الإنساني علما بأن طبيعة العلاقة مع المخالف في الحياة اليومية في مرجعية أي مجتمع هي المحددة لمساحة المشترك الإنساني تمديدا أو تقليصا فمن القضايا العملية الشرعية التي يمكن التأسيس عليها في تدبير المختلف وبناء المشترك مع المخالف ما يلي:

حماية الحق في الحرية:

عندما خلق الله عز وجل آدم أبا للبشرية أراد لأبنائه من بعده إلى قيام الساعة أن يكونوا مختلفين في أجناسهم ومعتقداتهم ولغاتهم، ولوشاء الله لجعلهم جميعا متساويين في كل شيء والشاهد عندنا

الآية الناطقة بذلك: (ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة)[المائدة:48]،لكنه تبارك وتعالى شاء أن يجعلهم مختلفين بدليل قوله عز وجل:(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) [هود :118-119]، وقد قال الله عز وجل مخاطبا نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي كان شديد الحرص على هداية الناس ودخولهم في الدين:(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[يوسف:103]، فلا يحق لأحد على الدخول في معتقده لأن ذلك يعد مسألة اختيارية وشخصية تتحقق عن طريق التحاور والمجادلة بالحسنى كما أمرنا الله عز وجل.

يقول الدكتور بسام داوود عجك: « أقر الإسلام بوضوح تام حرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على اعتقاد الإسلام وإن كان يدعوهم إليه ويرغبهم فيه، والدعوة إلى دخول الإسلام والإكراه عليه، أمران متضادان تماما فالأول جائز مشروع، والثاني حرام ممنوع»[11]

(11) بسام داوود عجك، الحوار الإسلامي المبادئ، التاريخ، الموضوعات، الأهداف، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 45.

العدل والحماية الدستورية لمصالح المخالف:

بعد هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وإقامته بها كتب ميثاقا للتعاهد والتعايش بين المسلمين واليهود وأطلق عليه اسم: «وثيقة المدينة»، وقد تضمنت الوثيقة ثلاث فئات تختلف أحوال كل واحدة منها عن الأخرى اختلافا واضحا، وكانت كل فئة تحظى بتوجيهاته صلى الله عليه وسلم في مسائل عديدة ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والملة، ولم يعتمد عليه الصلاة والسلام سياسة الإبعاد أو المصادرة أو التهميش أو الخصام.[12]

(12) صفي الرحمان المباركفوري الرحيق المختوم، دار الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1427ه، ص 173.

وحين نحاول استجلاء الموقف الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم من غير المسلمين فإن المنهج يقتضي الإحالة على الواقع العملي، وعلى الممارسة الدائمة للعلاقة النبوية بغير المسلمين، لان الفعل يظل أقوى في التعبير عن الموقف النبوي مما يمكن أن تقيده أحاديث قد يساق بعضها مساق المجاز وقد تكون من قضايا العيان وقد يعقبها النسخ.

وقد ثبت أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قدم للإنسانية

أرقى النماذج التي عرفتها البشرية في فن التعايش السلمي مع المخالفين في الدين والملة، ومن خلال وثيقة المدينة التي تعد وثيقة تاريخية محضة نسجل الاستنتاجات التالية:

أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قدم للإنسانية أرقى النماذج التي عرفتها البشرية في فن التعايش السلمي مع المخالفين في الدين والملة

-اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني عوف أمة مع المسلمين، وفي هذا تأسيس لمبدأ التعايش على أساس المواطنة، والاخوة البشرية، وعدم التعصب لعرق أو دين، مع احترام المقدسات والمعتقدات.

-ضمان الحقوق المالية والاقتصادية لكل الطرفين -من مسلمين ويهود-وفي هذا حفظ لحقوق وممتلكات الآخر.

-الدفاع عن حقوق المظلومين والانتصار لهم وتحقيق العدل فوق كل مصلحة شخصية.

-إقرار مبدأ النصيحة والدعوة، وتحقيق مبدأ الخير والبر والمعاملة بالحسنى لما فيه صلاح الانسان وضمان التعايش السلمي وتحقيق الأمن.

يقول ابن هشام: «وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام ولتوسيع منطقة الأمن والسلام»[13]

(13) صفي الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص 174.

المبحث الرابع

تفعيل المشترك الإنساني من الأساس النظري إلى التطبيقي (دور المؤسسات الدينية والمؤسسات الاكاديمية ووسائل الإعلام)

بيد أن التفاعل الديني الحضاري على أساس المشترك الإنساني لا يمكن أن يتم ويتحقق؛ إلا عن طريق حوار بناء وفعال بين الأديان، وقد سبق لعالم اللاهوت الألماني هانس كينغ أن قال: «لا حوار بين الحضارات بدون سلام ولا سلام بدون حوار بين الأديان»، وإذا كان القرن الواحد والعشرون هو قرن الأديان بامتياز؛ كما قال المفكر والكاتب الفرنسي أندريه مالرو، فإن الدين قد أضحى منبع الثقافات وملهمها، ومنه تتأتى معظم خصوصيات الشعوب ومقوماتها، ويرمي إلى أن لا يظلم أحد حقًا هو له بسبب تميزه الديني عن الآخرين، كما

يرمي إلى تحقيق العيش المشترك في عالم يسع الجميع مهما كانوا متباينين على المستوى العقائدي والثقافي والحضاري وذلك يتم من خلال :

1- إعادة فهم النص الديني: إن إعادة قراءة وفهم النص القرآني عموما والنصوص التي تنظم العلاقة مع الآخر، تكفل إيجاد بيئة معرفية مناسبة للحوار الديني والانفتاح على الآخر معرفيا وأخلاقيا من غير إلغاء للثوابت الدينية من جهة، وحفظ خصوصية الهوية الدينية التي ينتمي إليها أطراف الحوار الديني من جهة أخرى، ولا يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل يتعداه إلى إعادة بناء خطاب ديني جديد يسهم في إنجاح عملية الحوار وتقبل الآخر[14]، تقول الدكتورة المصرية منى إبراهيم اللبودي: «تزداد حاجة الأفراد إلى امتلاك مهارات الحوار البناء في مواجهة التحديات التي تفرضها طبيعة الحياة المعاصرة، حيث يتعرض الفرد في كل وقت لسيل من المعلومات والأفكار والثقافات، عبر الأقمار الصناعية وشبكات المعلومات وأجهزة العامل والاتصالات، وتستطرد الدكتورة منى ابراهيم الحديث عن أهمية لغة الحوار والتواصل الفعال بين الأفراد والجماعات وتقول «وتأتي أهمية استخدام أساليب الحوار البناء، إشباع حاجة الإنسان للاندماج في جماعة والتواصل مع الآخرين مع الاحتفاظ بمسافة بينه وبينهم، للحفاظ على وجوده وتفرده فالحوار الفعال يحقق التوازن بين حاجة الإنسان للاستقلالية وحاجته للمشاركة والتفاعل مع الآخرين[15]

2-توعية العقل الجمعي إزاء قضية الحوار الديني وتفعيل متبنياته العقدية والفكرية، وتقبل الآخر المخالف بعقيدته والانفتاح على فكره وتبادل الحوار معه على أساس الاستدلال العقلي والأخلاقي.

3-الحد من توظيف الدين سياسيا: ويقصد به جعل الدين طوع الغايات السياسية وفي خدمتها لغرض تحقيق مصالح سلطوية تتلبس بلباس ديني لإضفاء المشروعية عليها من جهة، واستقطاب النفوس والتأثير فيها لإحراز عدم المعارضة لها من جهة أخرى.

(14) نور الساعدي، أثر النص القرآني في التعددية الدينية، دراسة في متطلبات الحوار الديني المعاصر، الحمرا، بيروت، لبنان، ط1 ،2017 م، ص 264.

(15) منى ابراهيم اللبودي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1029ه/2449م، ص: 21

4-توجيه الإعلام الديني: وتتلخص خطوات توجيه الإعلام الديني فيما يتعلق في بيان حقيقة العالقة مع الآخرين في ضوء التعاليم الدينية من خلال ما يأتي:

-تنقية الإعلام الديني الداخلي من الازدواجية التي تحكمه، إذ يكون الإعلام الديني الداخلي يتسم بالتطرف والتعصب الديني والمذهبي وفي الوقت نفسه، يكون إعلامه الخارجي داعيا للانفتاح على الآخر واحترامه، مما يفقد ذلك الإعلام مصداقيته وتأثيره في المتلقي.

-الاستماع إلى الآخر وإعطائه فرصة الحديث عن نفسه، من غير التخوف أن يكون ذلك جزء من الترويج للأفكار الخاطئة.

-قراءة الواقع الديني الذي تعيشه المجتمعات قراءة واعية، بعيدا عن أية مؤثرات قد تؤدي إلى فقدان الموضوعية في إيصال حقيقة ذلك الواقع إلى الناس، مما يؤدي إلى تكوين رؤية غير متكاملة قد يكون التعامل معها أكثر ضررا من انها لم تعرض من الأساس.

وكل ذلك يتطلب جهدا منظما وشعورا بالمسؤولية إزاء تعاليم الدين وإظهارها بالشكل الذي يليق بها من جهة، وتغيير الوعي الجمعي والتأثير في سلوكه من خلال النهوض به إلى المدنية ونبذ العنف.

إنَّ تمتين كل حوار منشود بين الإسلام والمختلف الديني؛ يقتضي إعادة طرحٍ جديد يُبنى على الوضوح ويلتزم بأخلاقيات الحوار، ويُعيد النَظَر في الأهداف والوسائل الموصلة إلى ذلك، ولن يكون هذا مجديًا في رأيي؛ إلا إذا تمَّ توسيع قاعدة هذا الحوار ليصير حوارًا ثقافيًا مدنيًا، يشمل كل المكونات والفعاليات الثقافية في المجتمعين المتحاورين. ويبقى الأمل العريض الذي ينبغي النظر إليه بتفاؤل من طرف أتباع الحضارتين الإسلامية والغربية هو أن حتمية الحوار الديني الحضاري؛ أمرٌ واقع لا محالة طال الزمن أم قصر، لأنه في نهاية الأمر؛ لابُدَّ أن تنتصر الإرادات والعزائم الساعية إلى إدارة الحوار الديني والحضاري بين الطرفين وتفعيل العمل المشترك الذي يحركه الفهم والوعي المشتركان للمخاطر التي تحدق بالبشرية جمعاء.

5-تفعيل دور المؤسسات الدينية:

يظهر الدور المهم للمؤسسة الدينية في نشر ثقافة الحوار ودعم المشتركات الإنسانية، في محاولات لسد الفجوة بين الشرق والغرب، وتقريب وجهات النظر والرؤى والأفكار بين الشعوب وتصحيح الأفكار والمفاهيم المغلوطة عن الأديان بغية الخروج بثقافة إنسانية جامعة توحد ولا تفرق، ولا تتوقف عند عتبات العنصرية والتطرف بل تتجاوزها بكثير من الرقي والتفهم والاستيعاب الحقيقي لجوهر الأديان والتمعن فيما تحمله من رسائل تحث على التعاون والتقبل بوجود الآخر، والإيمان بالاختلاف.

ويأتي الدور المؤثر لرجال وعلماء وقادة الأديان إلى جانب دورهم الدعوي لعبادة الله وتعليم أصول الدين وممارسة العبادات ليتجاوزه في تبني ودعم جهود الإسهام الفاعل في معالجة آليات التصدي لتحديات العصر التي تمر بها المجتمعات الإنسانية كافة عبر تبني خطاب ديني عاقل معتدل، متجدد، خطاب يجنح للسلم ويؤمن بدور حوارات وملتقيات الأديان في تحقيق السلم العالمي وإنهاء النزاعات والحروب.

ولعل الحاجة لمثل هذه الحوارات المحفزة والإيجابية أصبحت أكثر إلحاحا من أي وقت مضى بسبب ما يشهده العالم من نهضة ثقافية وفكرية وعلمية متسارعة، وطفرة تكنولوجية وإعلامية هائلة في ظل عصر العولمة واتساع سقف الحريات، وهو ما بات يشكل هاجسا للحكومات وقادة الأديان في العالم لضرورة الأخذ بمبادرات إقليمية ودولية لرأب الصدع وتضييق الهوة بين الشعوب المتنازعة على أساس عرقي وديني، والنظر في مستقبل السلام والتعايش بين البشرية جمعاء بشكل أكثر عمقا وجدية وموضوعية.

المؤسسات الأكاديمية ومؤسسات المجتمع المدني مكونٌ حقيقي وفاعل لبلورة التواصل الحضاري بين مختلف ثقافات الأرض

6-تفعيل دور المؤسسات الاكاديمية والمجتمع المدني:

المؤسسات الأكاديمية ومؤسسات المجتمع المدني مكونٌ حقيقي

وفاعل لبلورة التواصل الحضاري بين مختلف ثقافات الأرض، تعبيدا لدروب الحوار والالتقاء في وجهات النظر والتحاور القائم على الاحترام المتبادل بين المكونات الثقافية والدينية والحضارية، بلحظ ما تحمله تلكم (المؤسسات) بين جنباتها من أجندة عملٍ على خريطة الواقع الاجتماعي، التربوي، الاقتصادي، السياسي، التطوعي، الخيري... إلخ.

مؤسسات المجتمع المدني والأكاديمي، مرورا بمؤسسة الجامعة والمعاهد ومراكز الدراسات والبحوث، وانتهاء إلى الجمعيات السياسية والمراكز الاجتماعية والعلمية، كلها تستطيع إذا ما وضعت ضمن برنامج عملها الآني والمستقبلي أن تؤسس الأرضية الملائمة الصحيحة التي من خلالها يبذر الحوار والتلاقي والتشاور في كل الشئون والقضايا التي تهم الأمة، ونحصد بعد ذلك ثماره مستقبلا، من خلال إقامة ندوات ولقاءات فكرية وثقافية تجمع بين ظهرانيها مختلف التوجهات والتلاوين وإعطاء مساحاتٍ للحوار البّناء ،للوصول إلى نقاط التقاء وقواسم مشتركة، تجمع الشتات الحضاري تدمجه وتقرب من وجهات النظر والأفكار.

مهمة المراكز العلمية والأكاديمية (الجامعات) اليوم غير محصورة في الجانب النظري والتحصيلي (التلقي) والتمحور حول الذات، والنأي بالنفس ما أمكن عن الجو الخارجي من العالم،

دور النخب المثقفة أن توظف كامل طاقاتها في سبيل خلق البيئة المناسبة التي من خلالها ترعى التحاور، التي من خلال آلياتها الحضارية نخاطب الحضارات الإنسانية، نأخذ ونعطي في الآراء والأفكار، نرفض بعقلانية ونقبل بعقلانية، نبني جسور الحوار والتمازج على أساسٍ من البناء المحكم السليم الذي لا يشعرنا في يومٍ من الأيام أنهُ آهلٌ للسقوط أو معرض للشقوق أو الشروخ، هذا يعتمد على مدى الجهد المبذول في نطاق العمل، ومدى الوعي الذي تتمتع به الكوادر المثقفة في غمار الأطروحات الفكرية المقابلة.

خاتمة:

في الختام لا بد من القول إن ترسيخ ثقافة المشترك الإنساني مهمة إنسانية وخيار منهجي ومطلب واقعي وشرعي، بما يتضمنه من اعتراف بالآخر وبحقه في الوجود، إذ بدونها تنعدم شروط الحياة الآمنة وظروف السلم الأهلي والاجتماعي، إلا أن الإشكال الحقيقي الذي تواجهه الإنسانية اليوم لا يتمثل في اختلاف الحضارات والثقافات والأديان، وإنما يكمن في مسألة تدبير هذا الاختلاف والتنوع بشكل عقلاني وموضوعي بعيدا عن نزعات التعصب والتطرف والهيمنة والحقيقة أن الموضوع واسع المجالات وأن هذه الأسطر ليست إلا إحالات واستطلاعات تسعى إلى إبراز عمق دعوة الإسلام إلى التسامح والتعايش والحوا، وقابليته المتجددة لرسم أفق أرحب للتعامل بين الناس في إطار علاقات إنسانية تنبذ العنف والتطرف والأنانية.

التوصيات:

• تأسيس معاهد ومراكز البحث العلمي، للتوفيق بين الأديان والحضارات والثقافات، ونشر مجلات ودراسات مختصة.

• الاعتناء بوسائل الإعلام والتثقيف والتوعية بقيم التعايش والتسامح والعيش المشترك، والعمل على تكريسها في الخطاب الثقافي والإعلامي، حتى يتوفر المناخ المناسب، لأن تصبح هذه القيم جزءا من النسيج الثقافي والاجتماعي.

• ضـرورة إشاعة وتعميق متطلبات التسامح والتعايش الديني والحضاري في واقعنا الاجتماعي والثقافي، وتجريم كل أشكال الكراهية والحقد في الدساتير والقوانين المنظمة للمجتمعات.

• تفعيل دور المؤسسات والمراكز الدينية والعلمية والحوارية، من خلال توعية الناس وتبصيرهم لعظيم الدور والهدف لمشروع الحوار و العمل على تأهيل شباب الأمة وكوادرها الأكفاء من خلال دورات مكثفة في شأن حوار الحضارات، وآليات التحاور مع الفكر الآخر وهلمّ جرا من مثيل هذه الأسئلة والإشكالات التي يجدر بشبابنا

المسلم أن يجعلها متراسا له في حواراته وثقافته، وأن يمتلك رصيدا ثقافيا يؤهّله لكي يُجاري في حواره الفكر المغاير، دون الاكتفاء بثقافتنا الإسلامية فحسب، بل بقراءة نتاج الحضارة الغربية وعلومها، فهو مقرب فعلي نحو التقارب وفهم الطرف المقابل في أي مشروع حواري هادف.

لائحة المصادر والمراجع:

1- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد، إعلام الموقعين، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ط 1مج 1.

2- ابن عاشور، الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، دار النفائس، الاردن، ط2، 2001م.

3- بسام داوود عجك، الحوار الإسلامي المبادئ، التاريخ، الموضوعات، الأهداف، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع.

4- الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت 1، 2000م، ص 362/4.

5- حسان حتحوت، رسالة إلى العقل العربي المسلم، دار المعارف، مصر.

6- الخولي، البهي، آدم عليه السلام فلسفة تقويم الإنسان وخلافته، مصر، دار النشر مكتبة وهبة، ط1 ،1974م.

7- صفي الرحمان المباركفوري الرحيق المختوم، دار الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1427ه.

8- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، دار الغرب الإسلامي، ط 5 ،1991م.

9- مخدوري، مجيد، مفهوم العدل في الإسلام، ترجمة: دار الحصاد، ط 1، دمشق، دار الحصاد للنشر والتوزيع،1998م.

10- منى ابراهيم اللبودي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1029ه/2449م.

11- الميساوي الطاهر، مقاصد الشريعة للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، كوالالمبور، دار الفجر، 1992 م.
12- نور الساعدي، أثر النص القرآني في التعددية الدينية، دراسة في متطلبات الحوار الديني المعاصر، الحمرا، بيروت، لبنان، ط1، 2017م.